دلالات الكيد في سورة يوسف

دراسة في مستويات المعنى من خلال كتب التفسير

✍ إعداد الباحثة

أسماء بنت إبراهيم الجوير

جامعة الملك سعود – الرياض- المملكة العربية السعودية

aaljwair@ksu.edu.sa

دلالات الكيد في سورة يوسف

دراسة في مستويات المعنى من خلال كتب التفسير

أسماء بنت إبراهيم الجوير

جامعة الملك سعود – الرياض – المملكة العربية السعودية

البريد الالكتروني: aaljwair@ksu.edu.sa

الملخص:

(الأصوات) هي العناصر الصغرى التي يتكوّن منها الكلام ولها علاقات تندرج في نظام خاص تحت عنوان (التشكيل الصوتيّ)، ثم إن هذه الأصوات تتألف في ما بينها لتشكل بنية أو صيغة تسمى الوحدة الصرفيّة وهي موضوع (الصرف)، وهذه الصيغ أو الكلمات ترتبط فيما بينها بعلاقات نحوية تتضح في السياق ويدرس تلك العلاقات (النحو)، ثم يأتي (المعجم) ليشرح الكلمة ويكشف عن حدودها ويدور حولها شرحًا وتحليلا، وأخيرًا يأتي (المستوى الدلاليّ) الذي هو خلاصة المعنى الوظيفيّ والمعجميّ. وقد سعت هذه المقالة إلى الاستفادة من هذه الأدوات اللغوية في دراسة خمسة أنواع للكيد حملتها سورة يوسف، عن طريق تأمل الدلالات التي حملها النص القرآني الكريم.

الكلمات المفتاحية: دلالة – كيد – معنى – نظام– علاقات .

Indications of the plot in Surat Yusuf
A study in levels of meaning through books of interpretation

Asma bint Ibrahim Al-Juweer
King Saud University - Riyadh - Kingdom of Saudi Arabia
e-mail: aaljwair@ksu.edu.sa

abstract:

Phonemes are the smallest elements that make up speech and constitute the phonological system in a language. These constituents build in the same time a morphological units that are known as morphemes and words. In another circle, these lexical units and syntactical tools function as the subject of linear relationship between each other. The theme of this paper is dealing with the semantic outcome of the latter composition, applied to the different levels of meaning of the lexeme" kayd "in Surat Yousf of Koran .

Keywords: connotation - intention - meaning - system - relationships

بسم الله الرحمن الرحيم

دلالات الكيد في سورة يوسف

إن نظام اللغة مجموعة من المعاني التي تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المباني المعبّرة عن هذه المعاني، ثم من طائفة من العلاقات التي تربط ربطًا إيجابيّا، والفروق التي تربط ربطًا سلبيًّا بإيجاد المقابلات ذات الفائدة بين أفراد كل مجموعة من المعاني أو مجموعة من المباني، ويشبه ذلك نظام الجسم الإنسانيّ المركّب من أجهزة فرعية تقوم بوظائف متعدّدة؛ لتحقّق الوظيفة الأساسية للجسم وهي الحياة أو الوجود البيولوجيّ للإنسان(١).

والنظر في النصوص على أنها نموذج لغويّ يمثّل هذا النظام يستدعي درسَها وفق مستويات هذا النظام وصولًا إلى الدلالة الكليّة، إذ يقسّم الدارسون المعنى إلى: المعنى المعجميّ الذي تدلّ عليه الكلمات مفردة، والمعنى الوظيفيّ الذي تكتسبه الكلمة بموقعها في الجملة بمساعدة مجموعة من القرائن في العبارة التي ترد الكلمة فيها، والمعنى الدلاليّ الذي قد يُحتاج في التوصّل إليه إلى قرائن كثيرة بعضها مقاليّ وبعضها الآخر مقاميّ(٢)، فقد تكون الدلالة إشارات وعلامات حسيّة ومعنويّة تهدي إلى المعنى وتوحي به، وقد تكون هذه الدلالة حركة أو حرفًا أو كلمة أو صيغة أو تركيبًا أو

(١) تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها** (دار الثقافة/ الدار البيضاء، ١٩٩٤م) : ص٣٣.
(٢) محمد ربيع الغامدي، **العلاقة بين المعنى والإعراب في الدرس النحوي** (نشر مجلة جامعة الطائف للآداب والتربية): ص٤.

سياقا، أو غير ذلك مما يدلّ على المعنى[1]، وقد فصّل الكفوي في هذه القرائن والعلامات فقال: "وأمّا الدلالة التي يتعلّق بها غرض البيان فهي تنقسم تارة إلى وضعيّة شخصيّة كانت، كوضع موادّ المفردات، أو نوعيّة كوضع صنفها ووضع الهيئات التركيبيّة، وعقليّة كدلالة الكلّيّ على جزئه، والملزوم على لازمه العقليّ، متقدمًا كان عليه كالثابت اقتضاء، أو متأخرًا عنه كموجب النصّ، وعاديّة كدلالة طول النجاد على طول القامة، ودلالة كثرة الرماد على كثرة القرى، وخطابيّة كدلالة التأكيد على دفع الشكّ أو ردّ الإنكار، وتارة تنقسم إلى قوليّة، وضعيّة كانت أو عقليّة أو عاديّة، أو خطابيّة، وإلى فعليّة، عقليّة كانت كدلالة التشبيه على المجاز، أو عاديّة، كدلالة: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ سبأ: ١٣ على عظم القدور، أو خطابيّة كدلالة تغيير النظم على نكتة تناسب في عرف البلغاء، وإلى حاليّة، عقليّة كانت كدلالة الحذف على الإيجاز أو عاديّة كدلالة الحذف أيضًا على ظهور المراد وتعيينه، أو خطابيّة كدلالة الحذف أيضًا على التعظيم والتحقير"[2].

ولأن الدلالة هي اكتمال المعنى كونها خلاصة المعنى الوظيفيّ والمعجميّ وما للسياق الاجتماعيّ من قرائن[3] فقد وضع بعض الدارسين للمعنى تقسيمات كثيرة

(١) كريم الخالدي، **نظرية المعنى في الدراسات النحوية** (دار صفاء للنشر والتوزيع/ عمان، ط١، ٢٠٠٦م): ص١٦.

(٢) أبو البقاء الكفوي، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية** (مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط٢، ١٩٩٨م): ص٤٤١_٤٤٢.

(٣)محمد صلاح الدين الشريف: **النظام اللغوي بين الشكل والمعنى**، حوليات الجامعة التونسية. العدد ١٧، ١٩٧٩، ص٢٢٥.

أهمها:

١- المعنى الأساسيّ أو الأوّليّ أو المركزيّ، ويسمى أحيانًا التصوريّ أو المفهوميّ، وقد عرّف (نيدا) هذا النوع من المعنى بأنّه المتّصل بالوحدة المعجميّة حينما ترد في أقلّ سياق، أي: حينما ترد منفردة.

٢- المعنى الإضافيّ أو العرضيّ أو الثانويّ أو التضمنيّ: وهو المعنى الذي يملكه اللفظ عن طريق ما يشير إليه إلى جانب معناه التصوريّ الخالص.

٣- المعنى الأسلوبيّ: وهو ذلك النوع من المعنى الذي تحمله قطعة من اللغة بالنسبة للظروف الاجتماعيّة، والمنطقة الجغرافيّة التي ينتمي إليها.

٤- المعنى النفسيّ: وهو يشير إلى ما يتضمّنه اللفظ من دلالات عند الفرد فهو بذلك معنى فرديّ ذاتيّ.

٥- المعنى الإيحائيّ: وهو ذلك النوع من المعنى الذي يتعلّق بكلمات ذات مقدرة خاصّة على الإيحاء، وتأثيرات هذا النوع من المعنى تأثير صوتيّ، أو صرفيّ، أو دلاليّ متعلّق بالكلمات المؤسّسة على المجاز[1].

وبعضهم فرّقوا بين المعنى وإيحاءاته النفسيّة والاجتماعيّة، المرتبط بالتفريق بين الوظيفة الإبلاغيّة للغة ووظيفة التأثير، فالمعنى المركزيّ للنص يمكن تفريعه إلى أنظمة دلاليّة مختلفة تشمل النظام الصوتيّ، والنظام الصرفيّ، والنظام النحويّ، والنظام

(١) أحمد مختار عمر، **علم الدلالة** (عالم الكتب/ القاهرة، ط٦، ٢٠٠٦م): ص٣٦_٣٩، وكريم الخالدي، **نظرية المعنى في الدراسات النحوية**: ص١٣.

المعجميّ[1]، وبهذه النظرات يمكن دراسة المعاني على مستويين مختلفين نسبيًّا: مستوى ما قبل التحقُّق السياقيّ في مقام التخاطب، ومستوى ما بعد التحقق السياقيّ في مقام التخاطب، الذي هو المعنى بعد أن يصير قصدًا فعليًّا تبعًا للقرائن التي ينصبها المتكلم[2].

وفي ضوء دراسة مستويات المعنى آنفة الذكر تأتي هذه الورقة محاولة لدراسة إحدى الدلالات في نص من القرآن الكريم يتصف بالوحدة الموضوعيّة المعنويّة، هو سورة يوسف التي من بدئها إلى منتهاها تروي حياة يوسف عليه السلام وهي القصة الوحيدة التي استغرقت سورة طويلة من سور القرآن الكريم، وهي القصة الوحيدة التي لم تتكرر أو تتجزأ في سور أخرى، وهي القصة الوحيدة التي وُصِفت بأحسن القصص[3]، تسلية للرسول محمد ﷺ وتوبيخًا للمشركين الذي عادوه وكذبوه[4].

وتبرز في السورة محاور ثلاثة هي:

١- الحياة الأسريّة، وفيها نظرات في العلاقات الآتية:

١.علاقة الوالدين بالأولاد: (الآيات ٤_ ٦، ١٨، ٦٤_٦٨،

(١) محمد محمد يونس علي، **المعنى وظلال المعنى**: أنظمة الدلالة في العربية (دار المدار الإسلامي/ بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م): ص٧.

(٢) السابق: ص٨.

(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (دار الشروق/ مصر، ط٣٢، ٢٠٠٣م): مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٥١، وأحمد نوفل، **سورة يوسف دراسة تحليلية** (دار الفرقان/ الأردن، ط١، ١٩٨٩م): ص٩_١٠.

(٤) سيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٥٠، أحمد نوفل، **سورة يوسف دراسة تحليلية**: ص١٣.

٨٣_٨٧).

٢. العلاقة بين الإخوة: (الآيات ٨ _ ١٨، ٥٨_٦٠،٦٩،٧٧، ٨٠_ ٨٢، ٨٩_٩٣، ١٠٠).

٣. العلاقة بين الزوجين: (الآيات ٢١ ، ٢٥ _ ٣٢).

٢- الحياة الاجتماعيّة، وتبرز فيها الجوانب الآتية:

أ_ الفتن:

١. فتنة النساء: (الآيات ٢٣_ ٣٣).

٢. فتنة المنصب: (الآيات ٥٠، ٥٤_٥٧).

٣. فتنة السجن: (الآيات ٣٣_٣٥، ٤٢ ، ٥٠).

٤. فتنة الانتقام: (الآيات ٥٨، ٧٧، ٨٨_٩٢).

٥. فتنة الأبناء وعدم العدل: الآية ٨.

ب- الاقتصاد: (الآيات ٤٣_ ٤٩).

ج- التطوّع: (الآيات ٣٦_ ٤١، ١٠٣_١٠٤، ١٠٨_١٠٩).

٣- الحياة النفسيّة:

والسورة عامرة بالآيات التي يمكن أن تنضوي تحت هذا المحور بما فيه من تأمّلات في النفس والعقل والشعور. لكن هذه الورقة ستركز على دلالات الكيد في السورة، وهو أحد الملامح النفسيّة البارزة في قصة يوسف عليه السلام، ويظهر أيضًا في العلاقات الأسريّة والاجتماعيّة بشكل

كبير، ويمكن تطبيق هذه الدلالات بالنظر إليها في حياة كل متلقٍّ للقصة، وهذا من خصائص الرسالة المحمدية والوحي القرآنيّ إذ هو صالح لكل زمان ومكان.

ويلزم توطئةً للدراسة النظر في المعنى الأوليّ والتضمنيّ للكيد قبل الشروع في بحث دلالاته، فالكيد "المكر، كادَهُ يكيدُه كيدًا ومكيدةً، وكذلك المكايدة، وربما سمي الحرب كيدا، يقال غزا فلان فلم يلقَ كيدًا[(١)]"، "والكيد الخبث والمكر، والكيد التدبير بباطل أو حق"[(٢)]، وقال ابن عاشور: "الكيد لم يضبط تحديد معناه في كتب اللغة، وظاهرها أنه يرادف المكر والحيلة، وقال الراغب: ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذمومًا وممدوحا، وإن كان يُستعمل في المذموم أكثر وهو يقتضي أن الكيد أخصُّ من الاحتيال؛ وما ذلك إلا لأنّه غلب استعماله في الاحتيال على تحصيل ما لو اطلع عليه المكيد لاحترز منه، فهو احتيال فيه مضرّة ما على المفعول به، فمراد الراغب بالمذموم والممدوح عند المكيد لا في نفس الأمر، وقال ابن كمال باشا: الكيد الأخذ على خفاء ولا يعتبر فيه إظهار الكائد خلاف ما يبطنه، ويتحصّل من هذه التدقيقات: إن الكيد أخصُّ من الحيلة ومن الاستدراج"[(٣)]، والكيد "إرادة مضرّة الغير خِفية، وهو من الخَلق الحيلة السيئة، ومن الله التدبير بالحقّ لمجازاة أعمال الخلق وفي التنزيل

(١) الجوهري، **الصحاح في اللغة**: مادة (كيد) كتاب إلكتروني.
(٢) ابن منظور، **لسان العرب**: مادة (كيد) كتاب إلكتروني.
(٣) محمد الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير** (دار سحنون للنشر/ تونس،١٩٩٧م): ج٩/ص١٩٢.

العزيز قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ الطارق: ١٥ - ١٦"[1].

واستنادًا إلى هذا تظهر صور الكيد في سورة يوسف في خمسة أنواع:

الكيد الأول: كيد إخوة يوسف عليه السلام.

كانت مرحلة الكيد هذه أول مراحل الكيد في حياة يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾ يوسف: ٤ ـ ٥، قول يعقوب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ﴾، يستدلُّ منه الكتمان على بعض ما فضل الله به بعض عباده من أنواع الإكرام والاختصاص، عمّن يتوقع منه الحسد والحقد، ويلاحَظ هنا علم يعقوب عليه السلام بنفسيّة أبنائه الآخرين والخوف على أبنائه في أمرين:

- خوفه على يوسف عليه السلام من إيذاء إخوته له؛ لأنهم إن علموا بهذه الرؤيا فسوف يحسدونه ويكيدون له.

(١) علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: محمد صديق المنشاوي (دار الفضيلة/ القاهرة، ٢٠٠٤م): باب الكاف ص١٥٩ مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط** (مكتبة الشروق الدولية/ مصر، ط٤، ٢٠٠٤م): مادة (كيد) ص٨٠٧.

- خوف يعقوب عليه السلام على أبنائه من كيد الشيطان وعداوته، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾.

فكان تحذيره من الكيد الأصغر وهو كيد إخوته، ومن الكيد الأكبر وهو كيد الشيطان.

جاءت بعد هذه الرؤيا مرحلة جديدة وهي مرحلة كيد الإخوة ليوسف عليه السلام، فكان كيدهم نتيجة الحسد والحقد والكره الذي تحرّك في ذاتهم، وتناجوا بالإثم والعدوان في مجلس تشاكَوا فيه انصراف أبيهم ــفي ظنّهمــ عنهم إلى حبّ يوسف وأخيه، وظنُّوا أن اجتماعهم سبب لأهليّتهم هذا الحبّ، وتصاعد شعورهم بالغيظ حتى وصفوا يعقوب عليه السلام بالضلال المبين، وما هو بضلال ولا بمبين إلا في عيونهم التي أعماها الحسد الذي يغيّر الحقائق في نفس الحاسد، حتى لا يرى الخير في غيره، ويحكم على من لا يوافقه بالضلال[1]، وتصاعد شعورهم هذا أكثر فما كان منهم إلا أن اتفقوا على إبعاد يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ يوسف: ٩ ـ ١٠، وهكذا مجالس السوء والغيبة والنميمة لا تفضي إلى خير ولا إلى برّ، إذ الشيطان يكون حاضرًا مسرورًا يشحن نفوسهم، وأقلّ ما يمكن أن يتلطَّف به من كان في قلبه بعض

(١) ياسر برهامي: **تأملات إيمانية في سورة يوسف** (دار الإيمان/ الإسكندرية، د.ط، ٢٠٠٤م): ص٣٤.

رحمة بأخيه هو نهيهم عن قتله واقتراح إلقائه في الجبّ وقاله متردّدًا بدليل الاشتراط ﴿ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾، قال ابن عاشور: "وفيه تعريض بزيادة التريّث فيما أضمروه لعلّهم يرون الرجوع عنه أولى من تنفيذه، ولذلك جاء في شرطه بحرف الشرط وهو (إنْ) إيماء إلى أنّه لا ينبغي الجزم به، فكَانَ هذا القائل أمثل الإخوة رأيًا وأقربهم إلى التّقوى"(١)، ويُلحظ أن استعمال أفعال الأمر (اقتلوا) (اطرحوه) (ألقوه) دالٌّ على قدر مشاعر العنف في قلوبهم، فأفضى بهم إلى تبادل أفعال الأمر للتعبير عن التعجّل والغيظ والقسوة والسُّلطة، ويظهر أن هذا الأمر الخطير من الكيد لأخيهم بأن تآمروا على قتله وإزهاق روحه أو إلقائه في الجبّ يدلُّ على أنَّ العواطف السيّئة المتوالدة من الحسد قد بلغت ذروتها، عندما يتمنى الحاسد زوال المحسود(٢)، والغيابة أسفل الجبّ، بحيث يغيب ما وضع فيه عن نظر الناظر(٣)، ولم يقل (ألقوه في الجبّ) بل في غَيابته، وهذا يعطي دلالة الرغبة في إخفاء فعلتهم والمبالغة في تغييب يوسف عليه السلام، وقد زيّن لهم الشيطان ونفوسهم الأمَّارة بالسوء فعلهم هذا وصوّر لهم نتيجة برّاقة بالانفراد بأبيهم وبتوبتهم بعد هذا الفعل وصلاحهم في مستقبل حياتهم، وكأن وسوسة

(١) الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٢٦، وينظر في الدلالة نفسها سيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٨٧٤.

(٢) يُنظر: عليش متولي بدوي البني، **موسوعة تفسير سورة يوسف عليه السلام** (مطابع القبس/ الكويت، د.ط، د.ت): ج١ الباب ١، ص٢٦٢_٢٦٣)، وعبد الله بصفر، **عبر ودلالات من سورة يوسف** (دار نور المكتبات/ جدة، ط١،٢٠٠٥م): ص١٣، وياسر برهامي: **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٣٣.

(٣) ياسر برهامي: **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٣٩.

الشيطان لآدم وزوجه تتكرر هنا ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠ ـ٢١، ويرى بعض العلماء أن إخوة يوسف عليه السلام رغم عزمهم على التوبة لم يتوبوا إلا بعد سنين طوال، فقد ظلوا يكنّون ليوسف عليه السلام العداوة وما شعروا بالندم على فعلتهم حتى إنهم قالوا له وهو عزيز مصر: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ يوسف: ٧٧، ولا يُلمح بداية الندم إلا في قول كبيرهم: ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ ﴾ يوسف: ٨٠[1].

ولقد عزم الإخوة على تنفيذ تلك المؤامرة من إلقاء أخيهم يوسف في غيابة الجب فأضمروا الشر في نفوسهم وقالوا لأبيهم بكلام ليّن كاذب: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ يوسف: ١١-١٢، وفي هذا السياق لمس الإخوة ببراعة عدم ائتمان يعقوب عليه السلام أبنائه على يوسف، وأظهروا أن ذلك لا مُبرر له وأن طلبهم كان ليلعب معهم، وأنهم سيحفظونه ويحيطونه بالعناية، وهذا من شدة المكر والكيد والتظاهر والحرص، نقيض قصدهم، واستعملوا لإقناعه عددًا من الأساليب التي تستعمل للتوكيد والإقناع والتلطف؛ فبدؤوه بنداء البنوّة لاستمالة قلب أبيهم، ثم باستفهام

(١) ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٣٨.

يستنكرون فيه عدم استئمان أبيهم لهم على يوسف واستجاشة لنفي هذا الخاطر ثم إطلاقه معهم[١] وهذا جزء من كيدهم، ثم استعملوا (إنّ) واللام اللتين تكررتا في عباراتهم التالية، وكان وصفهم أنفسهم بالنصح و"أن قلوبهم صافية لا يخالطها سوء وهذا يشي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المريب"[٢]، وبرروا رغبتهم في أخذه بما يقنع أي أب أو أم وهو الرغبة في ترفيه الطفل الصغير، ثم تعهدوا بحفظه ورعايته، فبادر يعقوب عليه السلام بإيضاح سبب خوفه، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ يوسف: ١٣، فحاول يعقوب عليه السلام أن يمتنع من إرسال ابنه يوسف مع إخوته لأمرين؛ الأول: أن فراقه لابنه بذهابه بعض الساعات من النهار يحزنه، ويبدو أنَّ عذره هذا هيَّج حقدهم، الثاني: خوفه أن ينشغلوا عنه فيأكله الذئب وهو صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه، وإنّما ذكر يعقوب عليه السلام أنّ ذهابهم به يحزنه ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به لأنّ شأن الابن البار أن يتّقي ما يحزن أباه[٣]، ويُلاحظ مدى حب يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام مع علمه ببوادر نبوته، فإن كان سيحزن لفراقه ساعات فكيف سيكون حاله بغياب السنوات الطوال؟[٤] وبتعبيره عن خوفه وحذره هذا يكون يعقوب عليه السلام قد أخذ بالأسباب، إلا إن كيد إخوة يوسف عليه السلام كان شديدًا حيث تلقّفوا تعبير أبيهم عن خوفه وجعلوه عذرهم الكاذب بادروا بقولهم: ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٧٤.
(٢) السابق نفسه.
(٣) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٣١.
(٤) ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٤٣.

﴿عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ يوسف: ١٤، واللاّم في (لئِن أكله) موطّئة للقسم، أرادوا تأكيد الجواب باللاّم وإنّ ولام الابتداء وإذًا الجوابيّة تحقيقًا لحصول خسرانهم على تقدير حصول الشّرط، والمراد: الكناية عن عدم تفريطهم فيه وعن حفظهم إيّاه لأنّ المرء لا يرضى أن يوصف بالخسران(١)، فكان تأكيدًا وزيادة طمأنينة على قلب يعقوب عليه السلام، ثم تنقلنا الآيات بإيجاز الحذف إلى مكان آخر، ومعه تغير وجه الإخوة وتعاملهم إلى تعامل آخر: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ يوسف: ١٥، اجتمعوا على التخلص منه، فأظهروا له الأذى بعد ما أظهروا لأبيهم الحرص عليه، ورأى بعض المفسرين أنهم لما تسلموه وقد انتهوا إلى إلقائه في الجب شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه(٢).

ثم تظهر رعاية الله عز وجل ليوسف عليه السلام فأنزل على قلبه الأمن والسكينة ولولا رحمة الله به لمات يوسف خوفًا وهمًّا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ يوسف: ١٥، بهذه العبارة الموجزة طيّب الله قلب يوسف وثبّته بالوحي، أنك ستنبئهم بما فعلوا معك، وهذا القول يستلزم في الذهن أن لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنا، وسينصرك الله عليهم وستخبرهم بما فعلوا معك، فالله عز وجل ذكر النتيجة التي ستحصل ليوسف عليه السلام المناسبة لهذه الحادثة بالضبط وهي تستلزم ما ذُكر آنفا، "كان إلقاء يوسف في البئر إلى أسفل،

(١) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٣٢.
(٢) ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص ٤٦.

فجعلها الله بكرمه سُلمًا إلى الرفعة والعلو، أرادوه أن يكون أسفل، فجعله الله أعلى منهم، فوقهم بمراتب علية لا تُدرَك، أرادوه إلى إهانة، فجعله الله إلى إكرام، أرادوه إلى خوف وفزع، فجعله الله إلى أمن وسكون، أرادوه إلى وحشة وانقطاع، فكان الوحي من الله أنيسه وجليسه"(١).

وأرادوا إكمال ما فعلوا بتبرير موقفهم وعبَّر القرآن الكريم بوقت العشاء ليعطي دلالة خفاء فعلهم إلا عن السميع العليم سبحانه، جاؤوا بقلوب مسرورة بنجاح الخطة الظالمة وعيون باكية أمام الأب المترقب، قال تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾يوسف: ١٦ -١٧، ويعلق ابن عاشور على تباكيهم بقوله: "ولعلّهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد، ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحاكاته فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة"(٢)، ثم قرعوا سمع أبيهم بأشق خبر يمكن أن يسمعه: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ ﴾، فاستخدموا المخاوف التي صرَّح بها أبوهم فجعلوها تبريرهم ومنقذهم، ويُستفاد من هذا أن الإنسان إنما يسلط عليه ما يخافه، وعدم التصريح بالمخاوف والسلبيات عند من لا يؤتمن حتى لا تُستغلّ(٣)، ثم كادوا يفشون سرهم بقولهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ فأثبتوا على أنفسهم بهذه المقولة أنهم كانوا كاذبين وليسوا بصادقين، وليؤكدوا هذا القول قال

(١) السابق: ص٤٧، وسيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٧٥.
(٢) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٣٦.
(٣) عبد الله بصفر، **عبر ودلالات من سورة يوسف**: ص١٥_١٦.

تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ يوسف:١٨، إلا أن كذبهم وكيدهم فُضح؛ لأنهم أحضروا قميصًا ملطخًا بالدم دون أثر بتمزق أو شق، ويعارض ابن عاشور ما نقله المفسرون من أنهم أتوا بالقميص بلا تمزيق(١)، وهذا أمر آخر يدل على قسوة قلوبهم على يوسف أنهم نزعوا قميصه وتركوه بلا قميص، ليستعملوا قميصه في خداع أبيهم، وقد أدرك يعقوب عليه السلام بدلائل الحال ونداء قلبه أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنها مؤامرة فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرًا منكرًا ويسرت لهم ارتكابه(٢)، فقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ يوسف:١٨، وكان هذا الجواب هو الرد اللائق بمقام النبوة فلم يتهمهم بارتكاب الجريمة بل أخبرهم أن أنفسهم سولت لهم أمرا يخلصهم من يوسف، واطمأنَّ بذلك إلى أن يوسف لم يمت كما زعموا، لذا سيصبر الصبر الجميل بلا جزع في القلب ولا شكوى لغير الله ولا عمل بالجوارح يدل على السخط، وسيستعين بالله في تصبره واستجلاب المنفعة ودفع المضارّ وإنفاذ وعده(٣)، ولقد كان الحسد هو الدافع الأول والحقيقي لكيد إخوة يوسف عليه السلام(٤).

---

(١) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٣٨.

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٧٦.

(٣) ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٥٢.

(٤) يُنظر عليش متولي بدوي البني، **موسوعة تفسير سورة يوسف عليه السلام**: ج١/ص٣٧٦_٤٤٥، وياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٤١-٥١، ومحمد علي أبو العباس، **يوسف عليه السلام بين مكر الأخوة وكيد النسوة**_ دراسة يجيبك فيها الإمام الفخر الرازي عن ٥٠ سؤالاً من خلال تفسيره: مفاتيح الغيب (مكتبة الساعي/ الرياض، د.ط، د.ت): ص٢٢-٢٣.

وقد كان غياب يوسف عليه السلام عن أبيه سببًا في رفعته ومُلكه، وكان حفظ الله له في غيابه عن أبيه أعظم من حفظه له في كنفه، وكانت تربية الله له بعيدًا عن توجيهات أبيه أكمل وأتم مما كان يريده يعقوب عليه السلام له ويقدر عليه، فهو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، وهو غالب على أمره سبحانه(١)، ولا تخفى دلالة الاستعلاء والغلبة والقدرة الإلهية في هذا التعبير(٢).

الكيد الثاني: كيد امرأة العزيز ليوسف عليه السلام.

ابتلي يوسف عليه السلام بمحنة أشد من محنة البئر وأشد من المحنة التي بعدها وهي محنة السجن، إذ ابتلي بإغرائه بالفاحشة ثم اتهامه بها، ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يوسف: ٢٣، وعند ابن فارس أن معظم أصل الراء والواو والدال يدل على مجيءٍ وذَهابٍ من انطلاقٍ في جهة واحدة. تقول: راودْتُه على أن يَفعل كذا، إذا أردْتَه على فعله(٣)، وترى لطيفة النجار أن صوغ الأبنية في العربية يحتكم إلى أربعة ضوابط مرتبة حسب أهميتها: الدلالة، الخفة والكثرة، المشابهة، أمن اللبس(٤)، فتكون

(١) ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٤٤،٥٧.

(٢) عويض العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف** (تدبُّر/ الرياض، ١٤٣١هـ): ص١٦.

(٣) ابن فارس، **مقاييس اللغة**: مادة (رود)، كتاب إلكتروني.

(٤) لطيفة إبراهيم النجار، **دور البنية الصرفية في وصف الظاهرة النحوية وتقعيدها** (دار البشير/ الأردن، ط١، ١٤١٤هـ_١٩٩٤م): ص٥٩.

العلاقة بذلك بين الأبنية الصرفية والدلالة علاقة تبادلية، واستعمال تلك الصيغ في النصوص يبرز كثيرًا من الأبعاد والملامح التي من شأنها توضيح المعنى الأولي أو تغييره لدى المتلقي، والمراودة في بداية الآيات دليل على تكرار الفعل من قبل امرأة العزيز ليوسف فكادت له هذا الكيد بعد عدد من المحاولات؛ لأن هذه الصيغة تأتي بمعنى الموالاة والتكثير(١)، "فالمراودة المقتضية تكرير المحاولة بصيغة المفاعلة، والمفاعلة مستعملة في التكرير، وقيل: المفاعلة تقديرية بأن اعتبر العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر من العمل بمنزلة مقابلة العمل بمثله، والمراودة : مشتقة من راد يرود، إذا جاء وذهب، شبه حال المحاول أحدًا على فعل شيء مكرراً ذلك بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه، و(عن) للمجاوزة، أي راودته مباعدة له عن نفسه، أي: بأن يجعل نفسه لها، والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، قاله ابن عطية، أي فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه"(٢)، وتحمل المراودة بذلك دلالة المغالبة، وقيل إن المراودة: بمعنى الطلب برفق ولين(٣).

ثم وصف امرأة العزيز باسم موصول وصلته ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ بلفظ البيت الدال على الخصوصية، ودلالة (في) على الظرفية المشعرة بالاختفاء، ليكون أدعى لتطويعه لمرادها وأدعى لوصف يوسف بالعصمة مع وجود ما يسوّغها، ومجيء صلة

(١) أحمد الحملاوي، **شذا العرف في فن الصرف** (دار الكيان/ الرياض، د.ط، د.ت): ص٧٩.
(٢) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥٠.
(٣) عبد الله بصفر، **عبر ودلالات من سورة يوسف**: ص٢٣.

الموصول مشتملة على ضميره (هو) دون أن يقال: التي تملكه أو يسكن بيتها أو ما شابهه للعناية بإبراز شأنه في هذه القضية لأنه المعني بها[1].

ثم بدأت بخطوة عملية فعلية فيها تصريح بالمراودة؛ قال تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ بصيغة التضعيف لإفادة شدة الفعل وقوته[2]، أي أغلقت إغلاقًا محكما وتكرر ذلك لأنه مع مجموعة الأبواب[3] فدلت على الرغبة الجامحة في امرأة العزيز وإرادة فعل الخطيئة مع توخي الحيطة في جو من الأمان، وبذلك هيأت للخطوة العملية القولية الأكثر جرأة ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ كلمتان اختصرت بهما المراد وأوضحت مقصدها بكل صراحة فالموقف وملابساته ومشاهداته يغني عن الخطاب[4]، ول (هيت) معانٍ ودلالات كثيرة تحدث عنها عويض العطوي[5] فقيل إنها اسم فعل بمعنى: هلم وأقبل وأسرع، أو بمعنى تهيأت لك وتصنعت لك خاصة فأقبل إلي وامتثل أمري، أو أنها حكاية صوت لاستدعاء الجماع، وفي تاج العروس: "هَيَّت بِه تَهْيِيتا، وهَوَّتَ: صَوَّتَ بهِ، و صاحَ، ودَعَاه فَقَالَ لَهُ: هَيْتَ هَيْتَ، ...والأَصلُ فيهِ حِكايةُ الصَّوْت، كأَنّهم حَكَوْا فِي (هوَّتَ) هَوْتَ هَوْتَ وَفِي هَيَّتَ هَيْتَ هَيْتَ، يُقَال: هَوَّتَ بِهِمْ، وهَيَّتَ بِهِمْ إِذا نادَاهم، وهَيْتَ: تعَجُّبٌ، تقولُ العربُ: هَيْتَ لِلْحِلْمِ:

(١) يُنظر: ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥٠، وعويض العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٢٣_٢٤.
(٢) الحملاوي، **شذا العرف**: ص٧٩.
(٣) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥٠_٢٥١.
(٤) عويض العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٢٧.
(٥) السابق: ص٢٧_٢٨.

وهَيْتَ لَكَ وهِيتَ لَك أَي أَقْبِلْ، وَقَالَ الله عزَّ وَجَلّ حِكَايَة عَن زَلِيخَا، أَنها قالَتْ لما راوَدَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السّلامُ عَن نفْسه: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ (مُثلَّثَةَ الآخر)، قَالَ الزّجّاج: وأَكثَرُها هَيْتَ لَكَ، بِفَتْح الهاءِ والتّاءِ (وَقد يُكْسَر أَوّلُه) رُوى ذَلِك عَن عليّ رَضِي الله عَنهُ، أَي هَلُمَّ، وَرويت عَن ابنِ عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا هِئْتُ لَك بالهَمْزِ وكسرِ الهاءِ من الهيْئة، كأَنّها قَالَت: تَهَيّأْت لكَ، قَالَ: فأَمّا الفتحُ من هَيْتَ؛ فلأَنّها بمنزلةِ الأَصْواتِ، لَيْسَ لَهَا فِعْلٌ يَتصرّفُ مِنْهَا، وفُتِحتِ التَّاءُ لسكونِهَا وَسُكُون الْيَاء، واختِيرَ الفتْحُ لأَنّ قبلَها يَاء، كَمَا فَعلُوا فِي أَيْنَ، وَمن كسر التَّاءَ فلأَنَّ أَصلَ التقاءِ السّاكِنيْنِ حَرَكَة الكَسْرِ، وَمن قَالَ: هَيْتُ، ضمَّها؛ لأَنَّهَا فِي مَعْنَى الغايَات، كأَنها قَالَت: دُعائِي لَك، فَلَمَّا حُذِفَت الإِضافةُ، وتضَمَّنَت هَيْتُ مَعْنَاهَا بُنِيَتْ على الضَّمِّ، كَمَا بُنِيتْ حَيثُ، وقراءَةُ عليّ رَضِي الله عَنهُ {هِيتُ لَكَ} بمنزلة هَيْتُ لَك، والحُجّة فيهمَا وَاحِدَة"[1].

ويتأمل الرافعي في دلالات هذا المشهد فيقول: "وأعجب من هذا كلمة (راودته) وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لون بعد لون، ذاهبة إلى فن، راجعة من فن، لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدان الإبل في مشيتها، تذهب وتجيء في رفق، وهذا يصوّر حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها أو محاولتها أن تنفذ إلى غايتها، كما يصوّر كبرياء الأنثى إذ تختال

(١) الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**: مادة هـ ي ت.

وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها..."[١]، وعن تغليقها الأبواب يقول: "أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالًا عدة، وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها في الإغلاق، كأنها تحاول سد كل الأبواب لا إغلاقها فقط"[٢]، ويرى سيد قطب أن قولها (هيت لك) دعوة سافرة جاهرة لا تكون أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة[٣]، ويحلل العطوي أصوات الكلمتين الموجزتين، فالهاء توحي بالضعف والهدوء والخفاء واللطف، والياء توحي بالانكسار والذاتية والذلة والخضوع، والتاء تشير إلى الانفتاح المقصود بعد الانكسار والخضوع، فكأنها تقول: كل شيء متاح لك، كما أنها تشعر بالمباشرة، واللام بما فيها من لصوق اللسان بالحنك عند النطق بها تصور رغبتها في القرب الشديد منه، إضافة إلى ما في اللام من معنى التملك، حتى كأنها ملّكت نفسه له، ثم تأتي الكاف بما فيها من خاصية الاحتكاك لتؤكد معنى اللصوق، وتشير بسكونها بالوقف عليها إلى ختام هذا الخطاب الموجز في هدوء ولطف يتناسب مع الموقف[٤]، وقد يستشف من حروف الهمس (الهاء والتاء والكاف) مستوى الصوت في حديث المرأة ليوسف عليه السلام.

وكان سبب كيدها ليوسف عليه السلام هو حبها وإعجابها به، وكانت تنتظر من

(١) مصطفى صادق الرافعي، **وحي القلم** (شركة دار الأرقم/ بيروت، ٢٠٠٤م): ج١ ص٨٦.
(٢) الرافعي، **وحي القلم**: ج١ ص٨٧.
(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٨٠.
(٤) عويض العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٣١.

يوسف عليه السلام بعد كل هذا أن يقبل نهما، كما يقبل السبع الجائع على فريسته[1]، لكن يوسف عليه السلام فاجأها بردة فعل غليظة ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يوسف:٢٣، واعتني بإظهار قوله مقابل قولها ليتضح الفرق بين لغة الشهوة ولغة العفة والوفاء، وذكر القول دون أي تصرف فعلي كما في حالها هي، لأنه السلوك الأسرع في مثل هذه الحالات، ولأن التصرف الفعلي قد لا يكون محمودًا إلا بعد تؤدة[2]، بادر يوسف عليه السلام بهذه الكلمة وهذا دليل على عظم صلته بربه بينما يغفل معظم البشر مع مثل هذه التسهيلات والسرية للوقوع في المعصية، ودليل على استنكاره العظيم لطلبها الذي يجب أن يعاذ بالله للخلاص منه، وهو بذلك يبرأ من حوله ويعتصم بالله عز وجل، ويُلحظ ما في اسم الجلالة (الله) دون غيره من الأسماء الحسنى من القوة، ومناسبة ذلك لحاجته للجوء والاستعاذة، وما فيه من تربية للمهابة في نفس هذه المرأة لعلها ترعوي.

واختلف المفسرون في معنى (ربي) فقال فريق: إنه الضمير عائد على المذكور السابق وهو الله سبحانه، فيكون المعنى تعظيمه نعمة الله عليه بنجاته من الجب وتمكينه في الأرض بسكنى القصر، وتكون دلالة (إنه لا يفلح الظالمون) الذين يتجاوزون حدود الله فيرتكبون مثل هذه الفاحشة[3]، وفريق آخر جوّز أن يعود الضمير إلى معلوم من المقام وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يمسها غيره، فهو معلوم

(١) فضل حسن عباس، **قصص القرآن الكريم** (دار الفرقان/ الأردن، ط١،٢٠٠م): ص٣٨١.
(٢) عويض العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٣٢.
(٣) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢، وسيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٨١، وياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٦٤.

بدلالة العرف، ويكون (ربي) بمعنى: سيدي ومالكي، وهذان عُذران لامتناعه عنها حكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه، وذُكِرَ وصف الرب على الاحتمالين لما يؤذن به من وجوب طاعته وشكره على نعمة الإيجاد بالنسبة إلى الله، ونعمة التربية بالنسبة لمولاه العزيز(١)، ويكشف التأمل أن يوسف عليه السلام رتَّب في قلبه وفي اعتصامه مراتب ثلاثًا(٢): أولاها خشية الله عز وجل باستعاذته به، وثانيتها الوفاء والاعتراف بفضل العزيز عليه واستهجان خيانته، وثالثتها صون نفسه عن الضرر لأن هذه اللذة العاجلة سيتبعها خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة ، ويمكن بترتيب اعتصام يوسف هذا عدُّ الخيانة والغدر ظلمًا إذ ائتُمِن يوسف عليه السلام على عرض العزيز، والإحسان يقتضي الإحسان، ومقابلة الإحسان بالإساءة ظلم، وظن أنَّ حق هذا الكلام أن يكون واعظًا لامرأة العزيز، ومما يلفت النظر في لغة رده عليه السلام النصاعة والنظافة والرقي، والبعد عن الأذى والمهاجمة، والسب والقذف كحال كثير من الناس في موقف كهذا، فلم يوجّه كلامًا مباشرًا ضدها، بل تعريضًا لطيفًا يفهم منه المراد(٣).

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف: ٢٤، الهمّ منها بمعنى العزم الأكيد،

(١) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥١_٢٥٢، وينظر: بصفر، **عبر ودلالات من سورة يوسف**: ص٢٢، والعطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٣٢.

(٢) ينظر فيها: محمد أبو العباس، **يوسف عليه السلام بين مكر الأخوة وكيد النسوة**: ص٣٥_٣٦.

(٣) يُنظر: ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٦٦، وعبد الله بصفر، **عبر ودلالات من سورة يوسف**: ص٢٣.

فهي لم تكتفِ بأن تطلب منه، وتراوده برفق ولين، بل انتقلت من الرفق واللين إلى الشدة، وإلى العزم الأكيد(١)، ثم انتقلت إلى التتبع ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ يوسف: ٢٥، وبين همها وهمه فرق كبير مع اتفاق اللفظ؛ فهمّها مؤكد بلام القسم و(قد) ولم يستثنِ، وهمُّها مقترن بأخذ ما تقدر عليه من أسباب، ورسول الله ﷺ يقول: "إنَّ اللهَ تجاوزَ لأُمَّتِي عما وسوستْ، أو حدَّثت به أنفُسَها، ما لم تعمل بهِ أو تكلَّمَ"(٢)، ولذا كان عزمًا تُحاسب عليه، ولم يعلّق على همها وعلّق على هم يوسف الذي أُتبع بـ (لولا) الدالة على امتناع الجواب لوجود الشرط، الذي كان مقترنًا بالفرار من المعصية والاستعاذة بالله والتحذير من الظلم(٣)، فلما ذكر همَّ امرأة العزيز قال: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ قال المفسرون في الآية تقديم وتأخير، أي: لو لم يرَ برهان ربه لهمّ بها، كما تقول في كلامك العادي: سقطت لولا أن حملني فلان من الناس، فتقدم الجواب على شرطه للاهتمام به، وهكذا في قوله تعالى: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ القصص: ١٠(٤)، ويرى ابن عاشور أن المقصود من ذكر همّها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همه بها لبيان الفرق بين حاليهما في الدين فإنه معصوم(٥)، واختلف المفسرون في البرهان الذي رآه يوسف، قيل: أنه رأى يعقوب أباه عليه السلام في صورة أمام عينيه وهو يعض إصبعه، وقيل: إنه رأى زوجها، وقيل: إنه رأى

(١) عبد الله بصفر، **عبر ودلالات من سورة يوسف**: ص٢٣.

(٢) موقع الدرر السنية، **صحيح البخاري**، رقم الحديث ٦٦٦٤.

(٣) ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٦٩_٧٠.

(٤) بصفر، **عبر ودلالات من سورة يوسف**: ص٢٣_٢٤، والعطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٣٥، وينظر: ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥٢_٢٥٣.

(٥) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥١_٢٥٢.

آية مكتوبة في سقف ذلك البيت من كتاب الله تبارك وتعالى، ورأي سيد قطب أن هذه أساطير، وأن الجمهور على أنها همتْ به همَّ الفعل، وهمَّ بها همَّ النفس، أي: حديث النفس، ثم تجلى له برهان ربه فترك، ونقل عن رشيد رضا إنكاره لهذا التفسير، إذ قال: إنما همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها، وهمَّ هو برد الاعتداء؛ ولكنه آثر الهرب فلحقت به وقدت قميصه من دبر، ورأى سيد قطب أن تفسير الهم بالضرب لا دليل عليه في العبارة[1]، ويرجح سيد قطب رأي الجمهور، إذ ذكر القرآن طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام والنجاة في آخره، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعًا، فما كان يوسف عليه السلام سوى بشر ثم إنه مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة ضعف طارئة، ثم نبض في قلبه وضميره برهان ربه وعاد إلى الاعتصام والتأبي، وهو من جهاد النفس لله الذي تحصل به الهداية ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ العنكبوت: ٦٩ [2].

وتعليقًا على ختام الآية ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ ﴾ يوسف: ٢٤، يمكن النظر في دلالة الصرف؛ فهي في المقاييس تدل على رَجْع الشيء، من ذلك صرفتُ القوم صرفًا وانصرفوا إذا رجعتهم فرجعوا، والصرف في القرآن: التوبة؛ لأنه يُرجع به عن رتبة المذنبين،[3] والسوء أعم من الهمِّ وذلك يعطي دلالة صرف كل أجزاء السوء وما يدخل تحت مسماه[4]، ويقول ابن

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٨١.

(٢) السابق: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٨١_١٩٨٢، ويُنظر: ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٧٠.

(٣) ابن فارس، **مقاييس اللغة**: مادة (ص ر ف)، معجم إلكتروني.

(٤) العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٣٧_٣٨.

عاشور: "والصرف: نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحل الذي من شأنه أن يحل فيه، عبّر به عن العصمة من شيء يوشك أن يلابس شيئا، والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أن أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة ولكن الله صرفهما عنه، ... ومعنى صرفهما عنه صرف ملابسته إياهما، ...وجملة ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء الصرف الخارق للعادة لئلا ينتقص اصطفاء الله إياه في هذه الشدة على النفس"(١).

لقد سعى يوسف إلى الاعتصام بالكلام ووعظها فلم ترتدع حتى كاد أن يرضخ لها لولا أن رأى برهان ربه، وحان وقت التصرف العملي: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾يوسف: ٢٥، "والاستباق: افتعال من السبق، وهو إشارة إلى تكلفهما السبق، أي: أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب"(٢)، أُسندَ الاستباقُ إليهما معًا في ضمير واحد دليلًا على اشتراكهما ف الفعل بصورة متساوية مع بعد ما بين نيتيهما، فقد أسرع يوسف عليه السلام وهي تجري من ورائه؛ تأكيدًا على عزمها وتصميمها على تنفيذ مخططها، أسرع إلى الباب يريد فتحه والخروج، فأسرعت هي لتسبقه إلى الباب وتمنعه، وبعض النحويين يرون نصب (الباب) على نزع الخافض، ونزعه يعطي دلالة أن المقصود ليس مجرد الاستباق، بل المقصود هو الباب وما الاستباق إلا وسيلة، ولو قيل: استبقا إلى الباب، لكان الباب مجرد علامة ينتهي

(١) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥٤_٢٥٥.
(٢) السابق: ج١٢ ص٢٥٥.

إليها السباق بينما هو غرض ومقصد السباق كله[١]، كما يعطي نزع الخافض دلالة سرعة الوصول إلى الباب كسرعة تعدي الفعل إلى (الباب) دون الحاجة إلى تعديته بالحرف المفيد انتهاء الغاية، ولم تظفر منه إلا بقميصه ليكون آخر محاولاتها في منعه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ يوسف: ٢٥، ويرى ابن عاشور أن قطع القميص كان قبل الاستباق حين أعرض عنها تريد إكراهه على ما راودته فجذب نفسه فتخرق القميص، وكان القطع من دبر لأنه كان موليًا عنها[٢]، واختار التعبير القرآني (القدّ) وليس الشق مثلًا؛ لأن دلالته المعجمية تدل على "قطع الشيء طولا"[٣]، وهو أكثر مطابقة للواقع؛ فمن يريد منع شخص مولٍّ من الهروب ويمسك بقميصه من الخلف سيمزقه طولًا لا عرضا، ويقدّم هذا الفعل من المرأة دلالة شدة استعار الشهوة وجنونها حتى تصرفت بعنف ليس من طبيعة الأنثى وضعفها، فضلًا عما يليق بسن امرأة العزيز ومكانتها.

ثم كانت المفاجأة التي حصلت من إلفائها زوجها لدى الباب، وفي مادة الإلفاء من دلالة المفاجأة وعدم الاستعداد ما ليس في غيرها، فهو وجدان شيء على حالة خاصة من غير سعي لوجدانه، فالأكثر أن يكون مفاجئًا أو حاصلاً عن جهل بأول حصول[٤]، واختار التعبير القرآني (لدى) دون (عند) من دلالة القرب والخصوصية[٥]،

(١) العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٤١.
(٢) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥٦.
(٣) ابن فارس، **مقاييس اللغة**: مادة (قدد)، معجم إلكتروني.
(٤) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥٦، العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٤٣.
(٥) العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٤٤.

ويقول الكفوي: "(عند) للحاضر والغائب، و(لدى) لا يكون إلا للحاضر، تقول: عندي مال، وإن كان غائبا، ولا تقول: لدي مال، والمال غائب"(١)، وجد الزوج هذا المنظر المريب، ولكن امرأة العزيز استدركت وجود زوجها بكيد جديد ولم تتحير ولم يدخلها الدهشة من وجود زوجها، وكأن جوابها كان حاضرًا معدًّا، فقد بادرت بركن الذنب على يوسف عليه السلام لتُخيِّلَ لزوجها أنها على حق: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ يوسف: ٢٥، إما أن تكون (ما) نافية أي ليس جزاؤه إلا السجن، وإما أن تكون استفهامية بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن، ويرى العطوي أن النفي يشعر بجزمها بالعقاب فهي تحصره فيما ذكرت، وأما الاستفهام فتريد به تنبيه الزوج على عظم الفاجعة، فتسأله ليكون في صفها، ويظهر الإعجاز في اشتمال (ما) على دلالتي النفي والاستفهام معًا، تاركة للزوج فهم المراد: إثارة حفيظته، وتقرير نوع العقاب(٢)، "وأفرغت الكلام في قالب كلي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها، فلا يسع المخاطب إلا الإقرار لها"(٣)، وفي قولها هذا يظهر لنا شدة ذكاء وكيد امرأة العزيز لأن قولها يترتب عليه أمور منها(٤):

١- جعلت صدور إرادة السوء من يوسف عليه السلام أمرًا ثابتًا غير مطروح للمناقشة والبحث إذ عبَّرت عنه بصيغة الفعل الماضي (أراد)، ومن

(١) أبو البقاء الكفوي، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**: ص٦٣٤.
(٢) العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٤٥.
(٣) السابق: ص٤٦.
(٤) عليش متولي بدوي البني، **موسوعة تفسير سورة يوسف عليه السلام**: ج١ص٦٥٣-٦٥٦، ويُنظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**: مجلد ٤ ج١٢ ص١٩٨٢، والعطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٤٦_٤٧.

جهة أخرى فهي إرادة فقط دون فعل.

٢- أرادت استعطاف زوجها وإشعاره بأنها لا تهوى سواه، وأنها تنتمي إليه بإضافة (الأهل) إليه، وفي اختيار (الأهل) دون (الزوجة) من دلالة الاستقرار والراحة ما لا يخفى.

٣- لم تخصص نفسها بإرادته للسوء بل عمَّمّت ليشمل أهل العزيز، وكأنها جاءت بلفظ الأهل ليدخل في هذا الحكم كل من يشمله هذا اللفظ في القصر، فتثير حمية العزيز أكثر.

٤- لم تخصص يوسف بل جاءت بالاتهام عامًّا، لأن هذا أبلغ في تخويف يوسف، ولتجعل الجزاء قانونًا عامّا، ثم هي لا تريد أن يُصاب بمكروه مقصود له بعينه، وحتى لا تواجَه بإنكار مباشر من يوسف عليه السلام واتهام مباشر لها.

٥- في قولها (السوء) عمَّمت لكيلا يُجزَم بأن المسألة خاصة بالعرض، بل بتأديب يوسف عليه السلام، ولأنها خشيت من تغليظ العقوبة عليه اقترحت العقوبة المألوفة في هذه الأحوال، إما بالسجن أو بالتعذيب المؤلم.

٦- وفي حديثها تهديد مستتر ليوسف عليه السلام بأنها صاحبة السلطة وبيدها الأمر والنهي، وهي التي اقترحت العقوبة، ومن يقترح العقوبة بإمكانه أن يقترح العفو أيضا.

٧- يظهر حبّ امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عندما اقترحت هي العقوبة؛ خوفًا من أن يتخلص العزيز منه بالقتل أو البيع؛ ولهذا قدمت عقوبة السجن على عقوبة العذاب، فهي لم ترد أن يمسه أحد بعذاب أو أن

يبعد عنها[1].

وتُلحظ المخالفة بين صيغتي العقوبتين: (أن يُسجن) بـ(أن) والفعل و(عذابٌ أليم) المصدر الصريح الموصوف، فلم يكن: السجن أو عذاب أليم، ولا أن يُسجن أو عذاب أليم، والسر في ذلك أن لفظ (السجن) يُطلق على مكان الحبس ويطلق على مصدر الفعل سجَنَ، فاستعمال (أن يُسجَن) أوضح في تسلط معنى الفعل عليه؛ لأنه الذي فيه النكاية، ثم إن من دلالة الفعل عدم الاستمرار، فقد يُسجن يومًا أو أقل، أما الحبس الدائم فيعبر عنه بالاسم نحو قول فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ الشعراء:٢٩، ووصفت العذاب بالأليم أي: الموجع إتمامًا لترهيبها ليوسف عليه السلام، ولإظهارها الحرص على شرفها وشرف زوجها، ثم إن من دلالة الاسم (عذاب أليم) إشعار بالمواصلة والثبات وهذا آلم[2].

قال تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يوسف: ٢٦ ـ ٢٧، اختلف الخطاب في الرد، فقد بادر يوسف عليه السلام بالدفاع عن هذه المكيدة التي وضعتها له في بداية الآيات، فاستعمل ضمير الغائب في الحديث عنها وهي حاضرة، ليعطي دلالة انصرافه عنها، وعدم اهتمامه

(١) عليش متولي بدوي البني، **موسوعة تفسير سورة يوسف عليه السلام**: ج١ ص٦٥٣-٦٥٦.
(٢) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**: ج١٢ ص٢٥٧، العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٤٩ـ٥٠.

بشأنها، لأنها لا تستحق التقدير بعد ما فعلته من خيانة زوجها، واتهامها ليوسف البريء، ثم هو عبر بالغائب تأدُّبًا وحياء، فلم يخاطبها ولم يشر إليها، واستعمل عبارة موجزة فيها كل المقصود، وصرّح بالسوء الذي أخفته هي؛ لأن مقصوده من الخطاب مختلف عن مقصودها[1]، وبعدها تحدث شاهد عن قميص يوسف عليه السلام للاستدلال به على هذه الواقعة، ولما تبيّن للعزيز صدق وبراءة يوسف عليه السلام، بادر بقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ يوسف: ٢٨، والعزيز عبر بصيغة الجمع في الكيد ليشير أن الكيد طبيعة مدفونة في قلوب جميع النساء وليست صفة اختصت بها زوجته من دونهن[2]، وفي الحديث قول الرسول ﷺ: "إنكن لأنتن صواحب يوسف"[3]، وقد قال أبو تمام:

فلا تحسبا هندًا لها الغدر وحدها .... سجيةُ نفسٍ كلُّ غانيةٍ هندُ[4]

الكيد الثالث: كيد نساء المدينة لامرأة العزيز.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ يوسف: ٣٠، وفي هذه الآية كان الخطاب لمجموعة من النساء فقد جاء الخطاب في جو من المكر والمكيدة وحب تناقل الأخبار والغيرة بين

(١) العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٥٠_٥١.
(٢) عليش متولي بدوي البني، **موسوعة تفسير سورة يوسف عليه السلام**: ج١ص٦٥٧.
(٣) الدرر السنية، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: ٦٧٩.
(٤) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، **خاص الخاص**، تحقيق: حسن الأمين (دار مكتبة الحياة/ بيروت_لبنان، د.ط): ص٢٠.

النساء، وحديثهن كان كيدًا ومكرًا منهنّ لامرأة العزيز لوجوه[1]:

١-إن النساء تحدثن بامرأة العزيز ويوسف عليه السلام مكرًا وكيدًا منهنّ لتريهنّ يوسف عليه السلام.

٢-إن امرأة العزيز أخبرتهنّ بحبها ليوسف عليه السلام وطلبت منهنّ كتمان الأمر فلما أظهرن هذا السر كان غدرًا ومكرًا منهن لها.

٣-إن النساء تحدثن بها في غيبتها، والغيبة تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر.

٤-تصريح النساء بقولهنّ امرأة العزيز مبالغة للتشنيع لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجري لهم.

٥- ذكر ابن القيم صورة من جملة ألوان كيدهنّ (امرأة العزيز تراوده)، فلم يذكروها باسمها وإنما بقبيح ما فعلت وإنها ذات زوج؛ لأن صدور الفاحشة من ذات الزوج أشنع ممن لا زوج لها.

٦- (إنا لنراها في ضلال مبين) جاءت هذه الجملة في نهاية خطاب النسوة، وقد جمعن فيها ألوانًا من المؤكدات على استقباح صنيعها في تلك الطبقة.

الكيد الرابع: كيد امرأة العزيز للنسوة.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ

(١) العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٥٩،٦٤، ومحمد علي أبو العباس، **يوسف عليه السلام بين مكر الأخوة وكيد النسوة**: ص٤٧.

مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾ يوسف: ٣١، لما سمعت امرأة العزيز مقالة النسوة فيها وما انطوى عليه خطابهنّ من المكر، هيأت لهنّ مكرًا أبلغ منه، فأرسلت إليهنّ وقد خصتهنّ بالدعوة دون غيرهنّ، وكانت هذه الدعوة أول خطوات مكرها وكيدها، فقابلت مكرهنّ القوليّ بهذا المكر الفعليّ، ثم يسّرت لهنّ ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد وغير ذلك مما يكون في المجلس، وقدمت في ذلك المجلس من الطعام المترف والمتنوع، ثم أعطت كل واحدة سكينا، وفي سياق الآية تبين حرصها على أن تكون السكين في يد كل واحدة، وكان قصدها من بروزهنّ على هذه الهيئات متكآت في أيديهن سكاكين أن تحصل على شيئين(١):

١ – دهشتهن عند رؤيته وشغلهنّ بأنفسهنّ فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها فتكبتهنّ، ويكون ذلك كيدًا بهنّ؛ إذ ذهلن عما أصابهنّ من تقطيع أيديهنّ، وما أحسسن به مع الألم الشديد؛ لفرط ما غلب عليهن من استحسان يوسف وسلبه عقولهنّ.

٢ – التهويل على يوسف عليه السلام بمكرها إذا خرج على نساء مجتمعات، في أيديهنّ الخناجر، توهمه أنهنّ يثبن عليه، فيحذر مكرها دائما.

وقد اعترفت أمامهنّ بنيتها السيئة وبطهارة يوسف عليه السلام وصرحت بتهديده، والعصمة التي وصفت بها امرأة العزيز يوسف عليه السلام تعني عدم القدرة على المعصية أو خلق مانع منها غير ملجئ بل ينتفي معها الاختيار، ... ومعناه أنها لا تجبره على

(١) العطوي، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**: ص٧٢-٧٤.

الطاعة ولا تعجزه عن المعصية، بل هي لطف من الله يحمل العبد على فعل الخير، ويزجره عن فعل الشر مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء[1].

هنا دعا يوسف عليه السلام ربه، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يوسف: ٣٣، وجاءت الإجابة الربّانية بقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ يوسف: ٣٤ .

الكيد الخامس: كيد يوسف عليه السلام لإخوته.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ يوسف: ٦٩، لقد أخبر يوسف عليه السلام أخاه بنيامين بأمره وأخبره بأن يكتم الأمر، واتفق معه على الحيلة التي سوف يقوم بها ليأخذه منهم ويبقيه عنده في دار كرامته، والذي يظهر أن هذه الحيلة والسعي لأن يأخذ أخاه عنده إنما هو وحي من الله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ يوسف: ٧٦، وذلك لأن ما جرى من أخذ بنيامين وعدم إرجاعه إلى أبيه الكبير في السن المكلوم بفقد ابنه الأول فيه من الأذى الجسيم لنبي الله يعقوب عليه السلام مالا يعلمه إلا الله، مما لا يجوز إن يقدم عليه يوسف عليه السلام بغير وحي من الله تعالى وإذن له في ذلك، لأنه

(١) الكفوي، **الكليات**: ص٦٤٥.

لو كان بغير وحي وإذن شرعي لكان من أعظم العقوق، وحاشا يوسف عليه السلام أن يقع في العقوق، ثم يخبر الله تعالى عن الحيلة التي وفق لها يوسف عليه السلام لكي يأخذ أخاه عنده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ يوسف: ٧٠ ـ ٧٦، لقد كان في شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه، فيكون عبدًا ورقيقًا عنده، وهذا الذي أرداه يوسف عليه السلام (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه)، ولقد ابتدأ بهم قبل أخيه من قبيل التورية وحتى لا يدخلهم الشك، ثم (استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف)، وهذا من الكيد المحمود المراد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة(١).

وقد ذكر الإمام ابن القيم لطائف على كيد يوسف:

١-أنه لما أراد أخذ أخيه بنيامين توصل إلى أخذه بما يقر إخوته بأنه حق وعدل، ولو أخذه بحكم قدرته لنسب إليه الظلم والجور، ولم يكن له طريق في دين

(١) ياسر برهامي، **تأملات إيمانية في سورة يوسف**: ص٢٠٦-٢٠٧، ٢١٠.

الملك يأخذه بها.

٢- أنه لم يفتش رحالهم وهم عنده، بل أمهلهم حتى جهزهم بجهازهم وخرجوا من البلد ثم أرسل في آثارهم لذلك.

٣- أنه أذّن فيه بصوت عال رفيع يسمعه جميعهم، ولم يقل لواحد منهم، إعلامًا بأن ذهاب الصواع قد اشتهرتم بأخذه ولم يتهم به سواكم.

٤- ظهور صدق المؤذن وعدله في اتهامهم بالصواع وحده.

٥- سؤالهم عن عقوبة السارق في دينهم فأخذوه بما حكموا به على أنفسهم لا بحكم الملك وقومه.

٦- تفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه تطمينًا لهم وبعدًا عن تهمة المواطأة.

٧ -أنه لما وصل إلى رحل أخيه قال: ما أظن هذا أخذ شيئا، فألحوا عليه حتى فتش متاعه فأخرج منه الصواع[1].

(١) عليش متولي بدوي البني، **موسوعة تفسير سورة يوسف عليه السلام**: ج٣ص١٢٧٤.

خاتمة

لقد حملت سورة يوسف خمسة أنواع للكيد تُوصِّل إليها عن طريق تأمّل الدلالات التي حملها النصّ القرآنيّ الكريم، وعبّر عنها بأدوات لغويّة كثيرة، ويمكن عدُّ المعجم والمعاني النحويّة والصرفيّة والصوتيّة من تلك الأدوات؛ فـ(الأصوات) هي العناصر الصغرى التي يتكون منها الكلام ولها علاقات تندرج في نظام خاص تحت عنوان (التشكيل الصوتيّ)، ثم إن هذه الأصوات تتألف في ما بينها لتشكل بنية أو صيغة تسمى الوحدة الصرفيّة وهي موضوع (الصرف)، وهذه الصيغ أو الكلمات ترتبط فيما بينها بعلاقات نحوية تتضح في السياق ويدرس تلك العلاقات (النحو)، ثم يأتي (المعجم) ليشرح الكلمة ويكشف عن حدودها ويدور حولها شرحًا وتحليلا، وأخيرًا يأتي (المستوى الدلاليّ) الذي هو خلاصة المعنى الوظيفيّ والمعجميّ.

إن دراسة دلالات النصوص تنطلق من دراسة المعنى وإيحاءاته النفسيّة والاجتماعيّة، وهذا مرتبط بالتفريق بين الوظيفة الإبلاغيّة للغة ووظيفة التأثير، فالمعنى المركزيّ للنص يمكن تفريعه إلى أنظمة دلاليّة مختلفة تشمل النظام الصوتيّ، والنظام الصرفيّ، والنظام النحويّ، والنظام المعجميّ، وتكشف هذه الورقة أن الاستعمال النفعيّ للغة الذي يبرز في دراسة المفسرين للمعنى يقدم وجهًا آخر لدراسة الدلالة، ينطلق من مستويات المعنى من أوّليته إلى تأثيره في النفس والمجتمع، وأثره في تحليل الخطاب.

وتُظهر الدراسة أن كتب التفسير التي تُعنى بالدلالة العميقة للنصّ القرآني أرضٌ خصبة لدراسات دلاليّة أعمق، قد تكون متجهة في طريق الحجاج أو التداوليّة أو الحقول الدلاليّة أو غيرها من نظريات وأفكار علم الدلالة.

المصادر والمراجع

١. برهامي، ياسر، **تأملات إيمانية في سورة يوسف** (دار الإيمان/ الإسكندرية، د.ط، ٢٠٠٤م).

٢. بصفر، عبد الله، **عبر ودلالات من سورة يوسف** (دار نور المكتبات/ جدة، ط٢٠٠٥،١م).

٣. البني، عليش متولي بدوي، **موسوعة تفسير سورة يوسف عليه السلام** (مطابع القبس/ الكويت، د.ط، د.ت).

٤. الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور، **خاص الخاص**، تحقيق: حسن الأمين (دار مكتبة الحياة/ بيروت_لبنان، د.ط).

٥. الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف **التعريفات**، تحقيق: محمد صديق المنشاوي (دار الفضيلة/ القاهرة، ٢٠٠٤م).

٦. الجوهري، **الصحاح في اللغة**، كتاب إلكتروني.

٧. حسان، تمام، **اللغة العربية معناها ومبناها** (دار الثقافة/ الدار البيضاء، ١٩٩٤م).

٨. الحملاوي، أحمد **شذا العرف في فن الصرف** (دار الكيان/ الرياض، د.ط، د.ت).

٩. الخالدي، كريم، **نظرية المعنى في الدراسات النحوية** (دار صفاء للنشر والتوزيع/ عمان، ط١، ٢٠٠٦م).

١٠. الرافعي، مصطفى صادق، **وحي القلم** (شركة دار الأرقم/ بيروت،

٢٠٠٤م).

١١. الزبيدي، مرتضى محمد بن محمد بن عبد الرزاق، **تاج العروس من جواهر القاموس**، من الموسوعة الشاملة.

١٢. الشريف، أحمد صلاح الدين **النظام اللغوي بين الشكل والمعنى**، حوليات الجامعة التونسية. العدد١٧، ١٩٧٩.

١٣. ابن فارس، **مقاييس اللغة**، كتاب إلكتروني.

١٤. قطب، سيّد، **في ظلال القرآن** (دار الشروق/ مصر، ط٣٢، ٢٠٠٣م).

١٥. الكفوي، أبو البقاء، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية** (مؤسسة الرسالة/بيروت،ط٢، ١٩٩٨م).

١٦. ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير** (دار سحنون للنشر/ تونس،١٩٩٧م).

١٧. عباس، فضل حسن **قصص القرآن الكريم** (دار الفرقان/ الأردن، ط١،٢٠٠م).

١٨. أبو العباس، محمد علي، **يوسف عليه السلام بين مكر الأخوة وكيد النسوة**_دراسة يجيبك فيها الإمام الفخر الرازي عن ٥٠ سؤالاً من خلال تفسيره: مفاتيح الغيب (مكتبة الساعي/ الرياض، د.ط، د.ت).

١٩. العطوي، عويض، **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف** (تدبُّر/ الرياض، ١٤٣١هـ).

٢٠. علي، محمد محمد يونس، **المعنى وظلال المعنى**: أنظمة الدلالة في العربية (دار المدار الإسلامي/ بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م).

٢١. عمر، أحمد مختار، **علم الدلالة** (عالم الكتب/ القاهرة، ط٦، ٢٠٠٦م).

٢٢. الغامدي، محمد ربيع، **العلاقة بين المعنى والإعراب في الدرس النحوي** (نشر مجلة جامعة الطائف للآداب والتربية).

٢٣. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط** (مكتبة الشروق الدولية/ مصر، ط٤، ٢٠٠٤م).

٢٤. ابن منظور، **لسان العرب**، كتاب إلكتروني.

٢٥. النجار، لطيفة إبراهيم، **دور البنية الصرفية في وصف الظاهرة النحوية وتقعيدها** (دار البشير/ الأردن، ط١، ١٤١٤هـ_١٩٩٤م).

٢٦. نوفل، أحمد، **سورة يوسف دراسة تحليلية** (دار الفرقان/ الأردن، ط١، ١٩٨٩م).

المواقع الإلكترونية

١ موقع الدرر السنية، الموسوعة الحديثية.

٢ موقع الموسوعة الشاملة، المعاجم ولغة الفقه.